مقدمة المترجم

أقدمت على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية برغم أنه صدر في منتصف القرن الميلادي المنصرم، وبرغم أنه لم يحظَ بقدر كبير من الانتشار، إلا أني وجدت فيه جوابًا شافيًا عن سؤال شغلني منذ أن بدأت ظاهرة الإرهاب تشغل العالم، وهو: «لماذا يصبح الإرهابي إرهابيًا؟».

رجعت إلى عدد من المصادر، وبحثت الأمر مع عدد من الخبراء، واتضح لي أنه على الرغم من وجود كم هائل من المعلومات عن الإرهاب، تنظيماته وقادته وأساليبه وأدبياته وتمويله، إلا أنه لا توجد كتابات تضيء عقل الإرهابي من الداخل، وتتيح لنا فرصة التعرف على هذا العالم العجيب المخيف.

ثم شاءت المصادفة أن أتعرف على هذا الكتاب (ولا بد هنا من تسجيل الفضل للصديق الدكتور علي بن طلال الجهني الذي أرسله إليّ). فوجئت بأنني عثرت، أخيرًا، على ضالتي، وحيث لم أتوقع: في كتاب لم ترد فيه كلمة الإرهاب، ونشر في زمن لم تكن فيه ظاهرة الإرهاب معروفة.

إلا أن الإرهـاب وليد التطرف والكتاب معنيّ بالتطرف: جذوره وبذوره. والمعادلة التي يعرضها المؤلف بسيطة ومقنعة في الوقت ذاته، وهي تبدأ بالعقل المحبط. يرى الإنسان المحبط عيبًا في كل ما حوله ومن حوله، وينسب كل مشكلاته إلى فساد عالمه، ويتوق إلى التخلص من نفسه المحبطة وصهرها في كيان نقي جديد. وهنا يجيء دور الجماعة الثورية الراديكالية التي تستغل ما ينوء به المحبط من مرارة وكراهية وحقد، فتسمعه ما يشتهي أن يسمع، وتتعاطف مع ظلاماته، وتقوده إلى الكيان الجديد الذي طالما حنّ إلى الانصهار فيه. من هذا اللقاء الحاسم بين عقلية الفرد المحبط الضائع وبين عقلية القائد الإجرامي المنظم ينشأ التطرف، ومن التطرف ينبت الإرهاب.

إنني أرجو أن يكون نشر الكتاب باللغة العربية مقدمة لعملين لا بد منهما. أما أولهما فمتروك للباحثين الذين يجب أن يعرضوا تحليل المؤلف على واقع الإرهاب المعاصر وأن يتركوا للدراسات الميدانية الدقيقة أن تصدّق أو تكذب تحليله (وفي رأيي أنها ستصدّقه!) وأمّا ثانيهما، وهو أهم وأخطر، فيقع على عاتق الدول العربية التي يجب أن تمتلئ بالفرص، وتزدهر بالأنشطة، وتبوح بمؤسسات المجتمع المدني النشطة – على نحو يقضي على الإحباط بين الشباب، أو على جزء كبير منه.

بـزوال الإحباط يـزول التطرف، وبـزوال التطرف ينتهي الإرهـاب. هذا -في رأيي- هو الأسلـوب الوحيد الناجع لمشكلة تقض مضاجع العالم كله.

غازي بن عبدالرحمن القصيبي

الرياض

1430هـ - 2009م

مقدمة المؤلف

يتعامل هذا الكتاب مع خصائص تشترك فيها كل الحركات الجماهيرية، سواء أكانت دينية أم اجتماعية أم قومية. ولا يزعم الكتـاب أن هذه الحركات متماثلة، ولكنه يذهب إلى أنها تشترك في صفات رئيسة تخلق بينها نوعًا من الشبه العائلي.

تولّد كل الحركات الجماهيرية في نفوس أتباعها استعدادًا للموت وانحيازًا إلى العمل الجماعي، وجميعها، بصرف النظر عـن المذهـب الذي تدعو إليـه، أو البرنامج الـذي تعنيه، تولد التطـرّف والحماسة والأمل المتقـد والكراهية وعدم التسامح، وجميعهـا قادرة على تفجير طاقات قوية من الحراك في بعض مناحي الحيـاة، وجميعها تتطلب من أتباعهـا الإيمان الأعمى والولاء المطلق.

وجميع هـذه الحركات، مهما كانـت اختلافاتها المذهبية وأهدافهـا، تستقطـب أتباعها الجـدد من النمـاذج البشرية نفسها، وجميعها تستميل الأنماط والعقول نفسها.

علـى الرغـم مـن أن هنـاك فروقًـا واضحة بـين المسيحيّ المتطـرّف، والمسلـم المتطـرف، والقومـيّ المتطـرف، والشيوعي المتطـرّف، والنازي المتطرّف، إلا أنـه يبقى صحيحًا أن التطرّف

الذي حرك هؤلاء كلهّم هو تطرفّ ذو طبيعة واحدة. وتصدق هذه الملاحظة على القوة التي تدفعهم إلى التوسع ومحاولة السيطرة علـى العالم. هناك درجة من التماثل بين هذه الجماعات تتجلىّ في إخلاصهـا للحركة، وفي إيمانها، وفي سعيها إلى السلطة، وفي وحدتهـا، وفي استعدادهـا للتضحيـة بالنفـس. وعندما اكتشف باسـكال الأسباب التـي أدت إلى نجاح العقيـدة المسيحية، فإنه في الوقـت نفسه، وضع يـده على الأسباب التي تـؤدي إلى نجاح العقائد الشيوعية والنازية والقومية.

مهما كانت القضايا المقدمة التي يموت الناس من أجلها، فإنهم، على الأرجح، يموتون للسبب نفسه.

يقصر هذا الكتاب اهتمامه،أساسًا، على المرحلة النشطة الدعوية إلى الحركة الجماهيرية. وتتميز هذه المرحلة، أساسًا، بسيطرة المؤمن الصادق -الرجل ذي الإيمان المتطرّف المستعد للتضحيـة بنفسه في سبيل القضية المقدّسـة- ويحاول الكتاب تحليل البذور والجذور التي تغذي طبيعة هذا الرجل. ويستعين الكتـاب في تحليله بفرضية محددّة. انطلاقًا من الحقيقة التي تقـول: إن المحبطـين[1] يشكلـون غالبية الأتبـاع الجدد في كل

(1) لا تستخـدم كلمـة «المحبط» في هذا الكتاب بوصفهـا تشخيصًا طبيًّا إكلينيكيًّا، وإنمـا يقصد بها الناس الذيـن يشعرون، لسبب أو لآخـر، أن حياتهم ميؤوس منها، وضاعت هباءً.

الحركات الجماهيرية، وأنهم ينضمّون إليها بإرادتهم الحرة، يفترض الكتاب:

أولاً: أن الإحباط في حد ذاته، ومن دون دعوة أو محاولة للاستقطاب من الخارج، يكفي لتوليد معظم خصائص المؤمن الصادق.

ثانيًا: أن الأسلوب الفاعل في استقطاب الأتباع للحركة يعتمد أساسًا على تشجيع النزاعات والاتجاهات التي تملأ عقل المحبط.

ولكي نمتحن صحة هذه الفرضية كان لابدّ من تحليل العلل التي تصيب المحبطين، وردود فعلهم إزاءها، والدرجة التي تتطابق فيها ردود الفعل هذه مع ردود فعل «المؤمن الصادق»، وأخيرًا، الوسيلة التي تستهل ردود الفعل هذه عبرها قيام الحركة الجماهيرية وانتشارها.

كما كان من الضروري فحص أساليب الحركات المعاصرة التي طوّرت أساليب ناجعة للتبشير بمبادئها واستخدمتها بفاعلية؛ لنرى إذا كان يمكن القول، حقًا: إن الحركات الجماهيرية في مرحلتها الدعوية تعمل على إيجاد عقل جماعي محبط، وإنها بالفعل، تحقق أهدافها عندما تجعلها متفقة مع نزعات المحبطين.

من الضروري لمعظمنا هذه الأيام (*) أن يملك نظرة نفاذة في دوافع «المؤمن الصادق» وردود فعله: برغم أننا لا نعيش في عصر الإيمان إلا أن هذا لا ينفي وجود ضرب من التدين تمثله ظاهرة «المؤمن الصادق». إن «المؤمنين الصادقين» يزحفون في كل مكان، ويحاولون عن طريق الإقناع أو العنف، صياغة العالم على شاكلتهم. سواء كنا ننوي الوقوف مع «المؤمن الصادق» أو ضده، فمن الضروري أن نعرف كل ما يمكن أن نعرفه عن طبيعته وما يستطيع أن يفعله.

ولعلّه من نافلة القول إضافة كلمة تحذيرية، عندما نتحدث عن شبه عائليٍّ بين الحركات الجماهيرية فنحن نعني «العائلة» بمعنى واسع جدًا. إن ثمارًا الطماطم وثمار أخرى سامة شبيهة بها تنتمي إلى «العائلة» نفسها، برغم أن الأولى طعام مغذّ والثانية سم قاتل. ومع ذلك فالشبه بين ثمار الطماطم والثمار السامة، من النواحي العضوية والتشريحية والشكلية، يجعل خبير النباتات، وحتى المراقب العادي، يصنفها ضمن «العائلة» نفسها. وافتراضنا أن الحركات

(*) من المهم أن يذكّر القارئ، هنا، وخلال الكتاب كله أن المؤلف نشر كتابه سنة 1951م، والحديث عن هذه الأيام، في هذه المدة يشير إلى تلك المرحلة (المترجم).

الجماهيرية كلها تحتوي على خصائص مشتركة، لا يعني بأي حال من الأحوال، أن هذه الحركات متشابهة في الخير والشرّ. لا يصدر هذا الكتاب أحكامًا ولا ينحاز إلى مهنة. كل ما يحاول الكتاب فعله هو أن يشرح، والشروح المقدمة هنا تجيء في شكل نظريات، ولكنها لا تعدو أن تكون مجرد اقتراحات وآراء، حتى عندما تصاغ على نحو قاطع، ولعل بوسعي أن أكرر هنا ما قاله مونتين(*) وكل ما أقوله هنا هو من قبيل النقاش، لا النصح. وما كنت لأتكلم بهذه الجرأة لو كنت متأكدًا أن كلامي سيؤخذ على «علّاته».

(*) كان مايكل دي مونتين (1533–1592م) من أهم الكتاب الفرنسيين في عصره واشتهر بقدرته على صياغة أفكار معقدة في مقالات سهلة مفهومة (المترجم).